الـمحاضرة الرابعة :

مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

إن الازدهار الحضاري والحياة الثقافية العلمية لأي أمة يرتكز أساسا على تقدم ورقي العلوم والفنون، والمتتبع لروافد الثقافة الجزائرية خلال العهد العثماني يجدها ترتكز على الاسلام دينا والعربية لغة لغالبية المجتمع الجزائري، وما يمكن الاشارة اليه أن الثقافة الجزائرية تأثرت في بعض الأحيان بثقافات المجتمعات الدخيلة والوافدة على المجتمع الجزائري في بعض الفترات التاريخية، ولعل أبرز التكتلات والتركيبات الأثنية التي اثرت في ثقافة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني نذكر الجالية الاندلسية وفئة الكراغلة والاتراك العثمانيين.

ارتبط الوضع الثقافي عامة والحياة الفكرية خاصة في إيالة الجزائر العثمانية بالمؤسسات التعليمية والتنظيمات الحيوية، وتأثر الى حد كبير بدور الفقهاء في المدن وشيوخ الزوايا في الريف، بينما عكست المظاهر ولاسيما العمارة والموسيقى ميول وأذواق ونوعية حياة سكان المدن والريف الذي يعد الحلقة البارزة خلال هذا العهد.

1. **المساجد:**

يعتبر المسجد منارة العلم والحضارة ومكان للعبادة ومجمع المسلمين ومنشطهم ومركزا اساسيا للحياة الدينية والعلمية والثقافية، وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنتشر المساكن والبيوت والأسواق والكتاتيب ، فهو بهذا المفهوم مؤسسة دينية للعبادة والتعليم ونشر العلم بالإضافة إلى تمتين الروابط الاجتماعية ومناقشة وحل قضايا المجتمع وفق مبادئ الشريعة الاسلامية السمحة، وقد كان بناء المساجد يتم في بعض الأحيان من طرف المبادرات الفردية، لأن الدولة لم تول الاهتمام لهذا الشأن باستثناء بعض الحكام الذين قاموا ببناء مساجد وأوقفوا لها من مالهم الخاص.

وهذا ما يؤكده صاحب عجائب الاسفار عندما يشير الى الباي محمد الكبير الذي قام بتشييد مسجد في الغرب الجزائري من ماله الخاص، والذي حمل اسمه (جامع محمد الكبير) بمدينة معسكر، ومن بين ابرز المساجد بالجزائر العثمانية نجد مسجد كتشاوة والجامع الكبير اضافة الى المسجد العتيق بمعسكر وجامع سيدي الهواري وغيرها

وتشير المصادر التاريخية ان عدد المساجد مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م بلغ حوالي 13 جامع رئيسي واكثر من 109مسجدا، منها اكثر من 24 مسجدا تابع للمذهب الحنفي، ومن بين المساجد المنتشرة في بقية الاقاليم تذكر لنا الاحصائيات انه كان يوجد بعنابة 37مسجدا وجامع وفي مدينة تلمسان اكثر من 50 مسجدا وجامع تتميز بطابعها الاندلسي، اشهرها جامع بومدين والجامع الكبير وجامع محمد السنوسي، وفي المدية كان بها 11مسجدا منها جامع سيدي المزاري الذي بناه مصطفى بمزراق أخر بآيات التيطري، والملاحظ ان جل هذه المساجد كانت مرفوقة بمكتبات للقراء والطلبة والاساتذة، جل كتبها كانت دينية، إلا ان بعضها كان يحتوي على القليل من كتب العلوم والرياضيات والطب، مما جعل العهد العثماني يتسم بالعلوم القرآنية النقلية اكثر من العلوم العقلية.
شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري بداية تمازج بين الموروث الثقافي مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد نتج عنه ظهور عدد من المدارس الدينية والفقهية ، .ولا تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة. ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها اليوم. ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عال رغم أن بعض المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليما في المستوى العالي .ولم تعرف الجزائر عندئذ المسرح ولكن وجد ما يشبهه كخيام القراقوز وحلقات المداحين وحلبات المصارعة. أما الصحافة فلم يكن لها وجود قبل العهد الفرنسي، وكذلك المطبعة .وبالإضافة إلى ذلك ترقت العمارة في الجزائر وامتزج فيها الذوق المحلي بالذوق العثماني الشرقي أيضا فظهر هذا الذوق في المساجد والقباب والقالع، كما ظهر الذوق المحلي في القصور والمنازل والمساجد أيضا.

2. المكتبات:

وجد عدد كبير من المكتبات في الجزائر قبل مجيء العثمانيين إليها وقد حافظ عليها أبنائها في إثناء العهد العثماني أيضا، وكانت الكتب في الجزائر تكتب محليا عن طريق التأليف أو النسخ أو تجلب من الخارج، لاسيما من بلاد الأندلس ومصر والأستانة والحجاز، كما وجلب الجزائريون المخطوطات من الدولة العثمانية وبلاد المغرب، فضلا على أن معظم الكتب قد وردت إلى الجزائر عن طريق عدد من العمال العثمانيين في الجزائر، إذ كان القضاة والدراويش والعلماء قد اصطحبوا معهم مكتباتهم وأوراقهم ووثائقهم، ومن أهم ما جاءوا به كتب الفقه الحنفي، ونسخ من صحيح البخاري، وكتب أدعية وأذكار خاصة ببعض الطرق الصوفية، وكان النسخ بالخط الأندلسي، الذي سبق الخطوط الأخرى في المغرب العربي، فضلاً عن الخط العثماني الذي جيء به إلى الجزائر، وكان اهتمام العمال بسبب التلاقح العلمي، ولم تكن للسلطة الحاكمة يد فيه، بل هو عمل إسلامي فردي. مع سيادة العموم الدينية في العهد العثماني كان محتوى المكتبات كتب التفاسير والأحاديث الدينية والفقه والأصول والتوحيد والعلوم اللغوية والعقلية، إذ اشتهرت مدارس (زواوة) العلمية بالأدب والنحو والصرف واللغة والبلاغة

والعروض، أما التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وكتب الحساب والطب والفلك فكانت قليلة، وكثرت المخطوطات في العهد العثماني، وقد وضعت في مكتباتها التي كانت منقسمة إلى مكتبات عامة وخاصة، وهي تضم مختلف المخطوطات في شتى الفنون، ويلجأ إليها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعة فيها، فالمكتبات العامة كانت وقفا على المساجد والزوايا والمدارس، بينما كانت المكتبات الخاصة تنتشر في البلاد بين العائلات المشهورة بالعلم والأعيان الذين لديهم اهتمام بالكتب ونسخها..

كانت المكتبات موزعة بين إنحاء الجزائر، من حيث الثقافة والاعتناء بتدريس العلوم، وحسب أهمية المدن كالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان، فكان أهل قسنطينة مولعين باقتناء الكتب والبحث عن المخطوطات، بسبب وجود العلماء والأدباء المتعلمين والمثقفين فيها كان مصير المخطوطات غير أمن، إذ ضاع عدد منها نتيجة الإهمال والنهب والتهريب والحروب التي وقعت بين الجزائريين والعثمانيين أو الحروب التي حصلت مع الأوربيين، وقد سمح للعلماء بأخذ الكتب إلى بيوتهم وبيع بعضها خارج الجزائر، وما يقال عن المكتبات الأخرى يقال عن المكتبات الريفية، إذ كانت لها أهمية كبيرة، كمكتبة ميزاب في بني يزقن، التي حافظ عليها أصحابها كمركز مهم لحركة الكتاب في الجزائر الغربية والجنوبية، وكما هو الحال في المكتبات الموجودة في مدن زواوة وورقلة وبجاية والخنقة، وهذا كله يدل على وفرة الكتب في الجزائر حتى في المناطق النائية، كما أن المواطن الجزائري حافظ على تلك المكتبات لما تشكله من وسيلة لنشر التعليم، وشحن أذهان العلماء والمدرسين،ويبدو إن عدم اهتمام الحكام العثمانيين بالأوضاع الثقافية في الجزائر،لم يمنع الجزائريين من استكمال ما بدؤوه من العلوم الإسلامية والإنسانية،والاهتمام بالمكتبات وثرائها بالكتب والمخطوطات والحفاظ عليها من التلف بحملها إلى أماكن آمنة، وبالتعاون مع العاملين في الجزائر لرفد المدارس والزوايا والجوامع بتلك الكتب المختلفة، والقيام بنسخها يدوياً للنهوض بالواقع السيئ الذي فرض عليهم.

3. التصوف أثناء التواجد العثماني في الجزائر :

شهدت الجزائر سيطرة روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية خلال العهد العثماني، ونتيجة لذلك كثر الإنتاج في هذا المجال، فنجد كتب في التصوف تناولت الأذكار والأوراد والمناقب والشروح تخص القصائد الصوفية، حيث كان التأليف في علم التصوف أكبر عكس بقية العلوم الأخرى في الفترة العثمانية، وذلك بسبب انتشار التصوف على مدى واسع في المغرب الأوسط، ففي كل جهة توجد زاوية أو مقام ولي صالح، وتوجد حلقة الذكر أو شيخ الطريقة يدعو إلى التمسك بالشريعة والاقتداء بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبهذا كان المجتمع الجزائري يراهم نموذجا في الصلاح والتقوى بعلمهم . وحسب ابن خلدون: هو علم من علوم الشريعة الحادثة في الملة، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة .

أهم الطرق الصوفية :أشهر طريقة من حيث الذيوع والانتشار، كانت الطريقة القادرية - الشاذلية التي تنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 561هـ و قد انتقلت إلى الجزائر بخاصة والمغرب بعامة عن طريق الشيخ أبي مدين التلمساني سنة 594 هجرية بتلمسان .أما في الشرق الجزائري فقد اشتهرت في كل من الجزائر، وقسنطينة –الطريقة الرحمانية، التي أسسها عبد الرحمن الأزهري(مجاورة) وتأسست بها عدة زوايا من أهمها زاوية باش تارزي بقسنطينة .وكانت الطريقة التيجانية التي أسسها أحمد التجاني المتوفى سنة 1230 هجرية من أهم الطرق التي شدت انتباه الناس إليها، لانها كانت من بين الزوايا أو الطرق التي ثارت في وجه الوجود العثماني.

الارشيف الجزائري :

لأمد بعيد ضلت المصنفات الأجنبية السبيل الوحيد لكتابة تاريخ الجزائر الحديث، وشكلت هذه الاخيرة المادة الأولية التي استندت إليها المدرسة الغربية عامة والفرنسية خاصة لتدوين تاريخ الجزائر، وبدا ذلك جليا من خلال مؤلفات كتابهم ومؤرخيهم، فجاءت هذه الكتابات مبتورة لاعتمادها على وجهة نظر معادية للجزائر وشعبها وحكومتها، وتجلى ذلك بوضوح عندما أقرت المؤلفات الغربية في مجملها على فقدان ملامح الدولة الوطنية للجزائر خلال العهد العثماني.

إلا أن التراث التاريخي الجزائري المخزون في المكتبات الوطنية ومراكز الأرشيف يفند هذه الرؤى الغربية تفنيدا قاطعا، ورغم أهمية الوثائق التاريخية الجزائرية والمخطوطات العلمية في الحقل التاريخي وما يمكن أن تقدمه للحقيقة العلمية إلا انها مازالت مغيبة وبكل أسف عن الدراسات الأكاديمية التاريخية، والواقع أن هذا التراث التاريخي له اهمية بالغة في المجال العلمي بصفة عامة والمجال التاريخي بصفة خاصة، إذ يعتبر بمثابة شاهد عيان على مجريات الاحداث والوقائع في الماضي، وسنحاول أن نسلط الضوء على أبرز عنصر من مكونات التراث التاريخي للجزائر العثمانية وهو الأرشيف الجزائري.

إن المراسلات بين الباب العالي وحكام الجزائر هي من أغنى المصادر عن الجزائر العثمانية، ويحتوي الأرشيف الوطني بالجزائر على حوالي ثلاثة ألاف وثيقة اتى بها احمد توفيق المدني من إستنبول وترجمت منها الى العربية نحو الف وثيقة، وقد نشرت بعضها في دوريات مختلفة

تكونت الوثائق العثمانية بالجزائر نتيجة التسجيلات المستمرة لأوامر وتعليمات وقرارات كانت تصدر عن حكام الايالة وموظفي البايلك، أو ترد عليهم من سلاطين الباب العالي وموظفيه، كما كان قسم منها ناتج عن نشاط وكلاء الايالة بالخارج أو قناصل وتجار الدول الأوروبية المقيمين بالجزائر، وقد وفرت هاته الوثائق معلومات تاريخية قيمة سواء كانت سياسية او اقتصادية او اجتماعية مما جعل الرجوع اليها امرا في غاية الأهمية، بحيث لا يمكن الاستغناء عن اية وثيقة منها.

إن الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الجزائر سواء الموجودة حاليا داخل الجزائر أو المحفوظة باستانبول أو المودعة بالأرشيفات الأوروبية قد اكتسبت أهمية داخل الوطن و خارجه، وتكمن أهميتها لكونها تشكل المصدر الخام لكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني، فهي تقدم للباحث والمؤرخ المادة الخبرية الضرورية وتشكل في نفس الوقت العمود الفقري لأي عمل تاريخي يهدف الى إعادة بعث ماضي الجزائر العثمانية حسبما يتطلبه المنهج العلمي وتقتضيه النظرة الموضوعية.

وثائق الأرشيف الجزائري:

تمتلك مديرية الوثائق الوطنية الجزائرية التي تحولت مؤخرا الى أرشيف وطني مجموعة هامة من الوثائق تخص تاريخ الجزائر في العهد العثماني، وهي في مجموعها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي :

- سجلات بيت المال :وهي الوثائق الخاصة بالأملاك الموقوفة وعوائد المؤسسات الخيرية، كما تحتوي على تسجيلات لأمانات وودائع بيت المال .
- دفاتر البايلك :وهي في أغلبها تقاييد للأملاك الموقوفة وجداول النفقات ومداخيل الخزينة وتسجيل للقضايا المتعلقة بالمعاملات.
- وثائق المحاكم الشرعية: وهي في غالبيتها عقود شرعية وأحكام قضائية تتعرض لقضايا الملكية والمعاملات المتعلقة بها من بيع وشراء ومخاصمات و إثبات نسب بالإضافة الى تسجيلات لعقود الزواج والطلاق.

هذا بالإضافة الى وثائق الارشيف الوطني المتعلقة بالتاريخ السياسي والاقتصادي للدولة الجزائرية خلال العهد العثماني، والذي يعرف بخط همايون ومهمة دفتري والذي يؤرخ بدوره للصراع الجزائري الأوروبي خلال العصر الحديث.